مجلة محكمة
الدراسات القرآنية المعاصرة

تعاليم تربية الإيمان في المدرسة النبوية من خلال النظر في الآيات الأولى من سورة الأنفال

زهراء رستمی قفس آباد[i]
الدكتور على اصغر تجرى(الكاتب المسؤول)[ii]
الدكتور عليرضا رستمی قفس آبادي[iii]

الملخص

تنمية الإيمان وتقويته تتحقق عمليًا من خلال ذكر الله وتلاوة القرآن الكريم والإستماع إليه والتوكل على الله وإقامة الصلاة والإنفاق. فمن منظور القرآن الكريم، هذه الأمور ليست شكلية فحسب بل تُعدّ في إطار وظيفتها التربوية بشروط دقيقة. أي أن ذكر الله سبحانه وتعالى يعني الخروج من الغفلة ومنح الشرف الوجودي، وتلاوة القرآن الكريم واستماعه هما خلق رابطة بين مصدر الوجود وعامل الطمأنينة القلبية، والتوكل هو إظهار الارتباط الوجودي، والصلاة بمعنى "إقامة الصلاة" أي إقامتها بوعي وكمال، والإنفاق يُفسَّر مقترنًا بالإخلاص والإستمرار والإعتدال. وذلك حيث إنّ نشر هذه التعاليم في سيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يدل على الحكمة العملية واهتمامه الجوهري بتثبيت الإيمان من خلال العمل. والنتيجة الأساسية للبحث هي إثبات الترابط والتعزيز المتبادل بين "الإيمان" و"العمل الصالح"، بحيث أن تعزيز أحدهما يقوّي الآخر. وبالطبع، فإن المعرفة الدينية وحدها لا تكفي لتثبيت الإيمان، بل إن الإيمان يبلغ كماله في ضوء العمل والتجربة الدينية. أي أن الإلتزام العملي بالتكاليف الشرعية - الذي يتجلى في إطار التعاليم الخمسة المذكورة - هو شرط ضروري لتعميق الإيمان الأولي وتثبيته. لذا، يهدف هذا البحث بمنهج وصفي تحليلي، مع التركيز على الآيتين ٢ و ٣ من سورة الأنفال، إلى توضيح طبيعة الإيمان وآليات تعميقه وتقويته في المنظومة التربوية الإسلامية.

الكلمات المفتاحية: الإيمان، الذكر، التلاوة، التوكل، الصلاة، الإنفاق، النبي(ص).

[i] - طالبة دكتوراه في تخصص الإلهيات_ مجموعة علوم القرآن والحديث، فرع قم، الجامعة الحرة الإسلامية في قم، إيران. البريد الإلكتروني Zrostami٥٠٠٠@gmail.com

[ii] - الدكتور علي اصغر تجري، الأستاذ المشرف والكاتب المسؤول، عضو هيئة التدريس بقسم الإلهيات والمعارف الإسلامية، الجامعة الحرة الإسلامية - فرع قم، إيران Tajari@iau.ir

[iii] . الدكتور عليرضا رستمي قفس آبادي، الأستاذ المساعد وعضو هيئة التدريس بقسم الفقه ومبادئ القانون الإسلامي، جامعة قم، كلية الإلهيات والمعارف الإسلامية، البريد الإلكتروني Ali.ebneebrahim@gmail.com

المقدمة

في الدراسات التفسيرية وعلوم القرآن، أحد المحاور الرئيسية هو دراسة العلاقة بين "الإيمان" و"العمل الصالح". أحياناً يُعتقد أن النهج السائد بين عامة المفسرين والمتدينين يقوم على نظرة أحادية الجانب، حيث تُعتبر العبادات مجرد تجليات خارجية للإيمان أو وسيلة لكسب الثواب الأخروي. هذا التصور يغفل عن الوظيفة المعرفية والنفسية للعمل الصالح كأدوات لتعميق الإيمان وتثبيته ورفع مستواه، وهي جوانب غالباً ما يتم إغفالها.

يصف القرآن الكريم المؤمنين الحقيقيين في الآيتين ٢ و ٣ من سورة الأنفال: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ». في الواقع، يعبر القرآن الكريم بشكل منظم وهادف عن التأثير المباشر للمواجهة القرآنية - في سياق الإستماع والتلاوة - أي الذكر والتلاوة، على زيادة الإيمان، ويقرنه مباشرة بعمليتين عباديتين بارزتين هما إقامة الصلاة والإنفاق مع التوكل. هذا الترتيب يشير إلى وجود علاقة متبادلة ومعززة بين حالة "الإيمان القلبي" و"العمل العبادي".

وبتعبير آخر، فإن الإيمان بالله وتعاليم الأنبياء كأهم احتياج فطري للإنسان، يتطلب معرفة توحيدية وإيماناً قلبياً عميقاً يتجلى في مجال العمل والأخلاق. ومن منظور التعاليم الدينية، يُعد الإيمان بمثابة جذر شجرة السعادة ومركز التوحيد، وأكثر الآليات فعالية لتحقيق النمو والتكامل الإنساني. لذلك، تحمل النبي محمد صلى الله عليه وآله، كمبعوث إلهي، مسؤولية هداية المؤمنين إلى الإيمان الأصيل، واستخدم في إطار رسالته التوجيهية كل الإمكانيات لرفع مستوى الإيمان الفردي والإجتماعي.

إن إستمرار هذا التيار التوجيهي عبر القرون واضح في الخطاب والممارسات في المجتمع الإسلامي، ووفقاً للآيات الأولى من سورة الأنفال، فإن التوجيهات التي أرسلها النبي صلى الله عليه وآله قد صيغت لتنمية الإيمان وتعزيزه. عوامل مثل الذكر وتلاوة القرآن والتوكل وإقامة الصلاة والإنفاق، تعتبر من المؤشرات المعززة لرأس المال الإيماني في إطار هذا النموذج التوجيهي.

من خلال الدراسات التي أجريت، تبين أنه في موضوع المقال الحالي، لم يُكتب كتاب أو أطروحة أو مقال بشكل مستقل ومنفصل، لكن بعض الكتابات تطرقت بشكل ضمني إلى أجزاء محددة من هذا البحث.

مفهوم الإيمان

"الإيمان من مادة (أ، م، ن) في اللغة بمعنى الطمأنينة والسكينة القلبية وعدم الخوف" (الفراهيدي، ١٣٨٥: ج٨، ص٣٨٨). "وفي الاصطلاح يعني الإقرار والتصديق بشيء والالتزام بلوازمه، والتزام يرافقه اتباع عملي؛ لذلك، كلما يذكر القرآن الكريم صفات المؤمنين أو يتحدث عن ثوابهم، يذكر العمل الصالح بعد الإيمان: «الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ» الرعد/٢٩. فالمجرد الاعتقاد ليس إيماناً إلا إذا التزم بلوازم ما يؤمن به وقبل آثاره" (الطباطبائي، ١٣٨٠: ج١٥، ص٤-٥).

"لأن القرآن الكريم يقول: «إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ» محمد/٢٥. وفي مكان آخر يقول: «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ» النمل/١٤" (الطباطبائي، ١٣٨٠: ج١٥، ص٤-٥).

"لذلك، مجرد العلم بشيء والإعتقاد الجازم بحقيقته لا يكفي لتحصيل الإيمان، ولا يمكن تسمية صاحب مثل هذا العلم مؤمناً. لأن الإيمان لو كان مجرد معرفة وفهم، لكان إبليس أول المؤمنين. في حين أن إبليس ليس بمؤمن، فهو تعنت وخالف ولم يستسلم لحقيقة عرفها لأنه لم يكن لديه ميل وحب لها، وبالتالي لم يتحرك نحوها" (مطهري، ١٤٠٢: ص١٢٨).

كما ذُكر في تعريف الإيمان، بالإضافة إلى الإقرار والتصديق القلبي، فإن الإلتزام العملي ضروري له. والسؤال المطروح هو: ما الذي يجعل الإنسان ملتزماً عملياً، وما العامل الذي يجعل الإنسان عند مفترق الطرق حيث يكون الله في جانب وغير الله في الجانب الآخر. هذا الموضوع مذكور صراحة في العديد من آيات القرآن الكريم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» التوبة/٢٣-٢٤.

"الآية الشريفة توضح بوضوح هذه النقطة: إذا لم تمتنعوا عما نهاكم الله عنه، وكانت متعلقات الذكر في الآية محبوبة لديكم أكثر من الله ورسوله، فإن أساس إيمانكم واهٍ ومتزعزع، وعليكم أن تنتظروا عذاب الله. قل لهم: الإيمان يساوي الولع، يساوي أن يكون كل ما سوى الله في مرتبة ثانية" (الطباطبائي، ١٣٨٠: ج٩، ص٢٧٦-٢٧٧).

"الإيمان هو شوق الإنسان وحبه وميله نحو الحقيقة، وبعبارة أخرى هو علم وتصديق، لكن علم وتصديق يرافقه عمل، وعمل دافعه ومحركه الحب. عندما يصل الإنسان إلى حقيقة هذا الحب، فإنه يحب لأجل الله أبعد الناس عن نفسه، ويبغض لأجل الله أقرب الناس إليه، وهذه هي حقيقة الإيمان" (محمدي الري شهري، ١٣٨٩: ج١، ص٤١٢).

"ورد عن فضيل بن يسار: سألت الإمام الصادق (ع): هل الحب والبغض من الإيمان؟ فقال: «هل الإيمان إلا الحب والبغض»" (الكليني، ١٤٠٥هـ: ج٢، ص١٢٥). هذا الحب والبغض هو أعظم قوة ومحرك للإنسان. في الواقع، "هو النقطة التي يجد الإنسان فيها كمال أمانيه وأفكاره

ومثله الأعلى" (مطهري، ١٣٩٠: ج١٤، ص١٦٥). وهو الشيء الذي تتشكل منه أعمال الإنسان. لأن القلب عندما يكون متعلقاً ومنغمسا في شيء، فإنه يتبعه ويحاول أن يقلل المسافة والزاوية فيما بينهما ، وفي النهاية يتطابق معه، و"هذا هو معنى الرشد. الرشد الذي هو الهدف النهائي لتعاليم الأنبياء، خصوصاً النبي الكريم محمد (ص): (إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد)" (الجن/١-٢) (الطباطبائي، ١٣٨٠: ج٢٠، ص٥٩).

الذكر والتلاوة طريقان معرفيان في تعزيز الإيمان

في المصادر الإسلامية، الذكر يعني التذكير. هذا التذكير يكون أحياناً بالنطق وأحياناً بمعنى الإنتباه القلبي، ونتيجته هي خروج الإنسان من الغفلة. (مطهري، ١٣٩٠: ج١٠، ص٣٠).
ذكر الله سبب سعادة الدنيا والآخرة وهو روح العبادة، كما قال تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا} طه/١٢٤.
ويقول النبي محمد (ص) عن الذكر بأنه أفضل وأطهر الأعمال عند الله سبحانه، يرفع درجات الإنسان أكثر من أي شيء آخر وهو أفضل وأعلى من كل ثروة مادية، بل أفضل حتى من مواجهة العدو والقتل والقتال. (المجلسي، ١٣٨٨: ج٩٣، ص١٥٧، ح٢٩).
لا شك أن التوفيق في مجال الجهاد والقتال في سبيل الحق مرهون بالإيمان الراسخ، وهو نفسه ثمرة مباشرة للتعقل الصحيح ومواصلة ذكر الله تعالى.
المعرفة تؤثر في سلوك الإنسان عندما تكون مصحوبة بالإنتباه وحضور القلب، لأن العلم بدون انتباه مثل مصباح مطفأ. قد يعرف الإنسان مفهوم شيء ولكن لا ينتبه إلى مصداقه الحي. بينما التأثير الحقيقي ينبع من الانتباه إلى المصداق، وكلما اتسع نطاق الإنتباه، كان تأثيره في نفس الإنسان أعمق. لذلك يؤكد الله سبحانه في آيات وروايات متعددة على ذكره وتذكره، لأن المواظبة على الذكر تحيي معرفة الله وتوسعها، وتكرار أذكار مثل "الله أكبر" و"سبحان الله" في المصادر الدينية هو للوصول إلى حضور القلب والشعور بالقرب في محضر الله تعالى. في هذه الحالة تبقى المعرفة، وينجو القلب من الغفلة، ويستقر الإيمان، ويتضح طريق السعادة الحقيقية. (مصباح يزدي، ١٣٩٤: ج٦، ص...).
ويقول الإمام الصادق (ع): "ما من شئ إلا وله حد ينتهي إليه إلا الذكر فليس له حد ينتهي إليه، فرض الله عزوجل الفرائض، فمن أداهن فهو حدهن... إلا الذكر فإن الله عزوجل لم يرض منه بالقليل، ولم يجعل له حدا ينتهي إليه. ". وهذا فهم مأخوذ من الآية الكريمة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا} الأحزاب/٤١. لأن تعبير "ذكراً كثيراً" يدل على الإستمرار والكثرة وعدم التناهي في ذكر الله تعالى ويوضح أن ذكر الله ليس مقيداً بحد أو مقدار معين مثل سائر التكاليف. (الكافي، ١٤٠٥ هـ: ج٢، ص٤٩٨).
ومن أسباب التأكيد على ذكر الله وتذكره في مجال الدراسات الدينية، تأثيره العملي والنفسي على الإنسان. هذا التأثير يكمن في تفاعل ثنائي الإتجاه؛ فكما أن العبد يشتغل بذكر الله، فإن الله

سيكون حاضره وناظره ورفيقه. وهذا الترابط المتبادل مبني على وعد القرآن الصريح: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} البقرة/١٥٢.
لهذا التذكير الإلهي أثران أساسيان: الأول أنه يلبس العبد ثوب العزة والكرامة، والثاني أنه يشعل جذوة الإيمان في داخله. كلما تعمقت أبعاد نور الإيمان، ارتقى بالفرد إلى مرتبة أعلى من حب الله، وهذا الحب هو في الحقيقة عملية التربية والتزكية للنفس بواسطة الله سبحانه وتعالى، والتي تتجلى في الحضور والمصاحبة له وتحقيق الإيمان الداخلي في نهاية المطاف.
كما في الحديث القدسي، فإن تحقيق عملية تزكية النفس (بناء الذات) بأمر إلهي مرتبط بمواصلة الذكر: "أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإن ذَكَرَنِي فِي نَفْسهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفسي، وإنْ ذَكَرَنِي فِي ملإٍ، ذكَرتُهُ فِي ملإٍ خَيْرٍ منْهُمْ" (المجلسي، ١٣٨٨: ج٩٣، ص١٦٢، ح٤٢).
"دخل رسول الله (ص) ذات يوم على أصحابه فقال لهم: ألا أدلكم على رياض الجنة؟ قالوا: بلى يا رسول الله، ما رياض الجنة؟ قال: مجالس الذكر، فعليكم بها غدوة وعشية، ومن أراد أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله تعالى ينزل العبد حيث أنزله العبد من نفسه" (ابن فهد الحلي، ١٣٧٥: ص٢٣٨).
"التلاوة تعني قراءة القرآن بحيث تصل حروفه متتالية واضحة ومميزة إلى سمع المستمع" (الطباطبائي، ١٣٨٠: ج٢٠، ص٩٦). و"الاستماع يعني السمع" (الطباطبائي، ١٣٨٠: ج٨، ص٤٩٩).
في المصادر الدينية، خاصة الكلام الإلهي وأقوال المعصومين (عليهم السلام)، هناك تأكيد كبير على التلاوة والإستماع المستمر للقرآن الكريم. يقول الله تعالى في محكم كتابه الكريم: "الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ" (البقرة: ١٢١)، في إشارة إلى الذين يقرؤون الكتاب السماوي بمراعاة آدابه كاملة. وفي تفسير هذه الآية، قال النبي محمد (ص) إن المقصود بـ"حق تلاوته" هو وجوب اتباع تعاليم الكتاب الإلهي والعمل بها كما ينبغي. (الطوسي، ١٣٧٦ هـ: ج١، ص٤٤٢).
"هدفت هذه الآية إلى بيان وإبراز الأصل الأساسي في النظام الإعتقادي للإسلام حول الإيمان والكفر. والمقصود بهذا الأصل هو 'قراءة القرآن بحيث تؤدى حق تلاوته'. ومقصود حق التلاوة هو قراءة القرآن بوعي وتدبر وتأمل عميق في معاني الآيات، بحيث لا تكون القراءة لفظية وظاهرية فقط، بل تكون بروح حقيقية وتجنب أي تعصب أو جمود فكري". (مكارم شيرازي، ١٣٧١ هـ: ج١، ص٥٥٣).
مثل هذه القراءة تفتح أبواب الفهم والبصيرة للإنسان وتقوده إلى معرفة الشواهد والعلامات والأدلة الإلهية، مما يؤدي في النهاية إلى تعزيز وتعميق الإيمان ويوفر طريقًا موثوقًا للوصول إلى الحقيقة والهداية الإلهية.
"الأديان السماوية أيضًا، عندما تبحث عن إجابات مضمونة ومعقولة في المجالات النظرية والعملية، تقرأ كتابها السماوي كما ينبغي، أي بفهم عميق لمحتوى الوحي، والإلهام من المشاعر

الروحية، والإنتباه إلى جميع الأبعاد المتعلقة بالله سبحانه والإنسان والوجود. من هذا المنظور، 'التلاوة الواعية' ليست مجرد عمل شكلي، بل هي عملية معرفية توفر أرضية لتشكيل ثقافة الإيمان في جو من البحث عن الحقيقة. ونتيجة هذه التلاوة الواعية هي إيمان ديناميكي وعميق وعقلاني، نابع من البصيرة والهداية، وليس تقليديًا وسطحيًا يغرق في ظلام الجهل والتعصب". (فضل الله، ١٤١٩ هـ: ج٢، ص١٩٧).

تلاوة واستماع القرآن الكريم تمهدان لتعالي الإيمان وتقرب السالك من مقام القرب الإلهي، كما تعبر الأساسيات مثل "إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" (البقرة: ١٥٦) عن الإرتباط الذاتي للإنسان بمبدأ الوجود. ومن خلال التلاوة والإستماع الواعيين، يتحول هذا اللقاء إلى لقاء عرفاني وعشقي، يشبه حالة قطرة تذوب في محيط لا نهاية له، فتهدأ ويعوّض نقصها الوجودي ويتحقق كمالها. من منظور وجودي، الإنسان هو مظهر الفقر المطلق، وكل ما يملكه هو عارية من الوجود المطلق لله جل وعلا. أي عامل يقيم هذه الصلة يمنح الوجود المضطرب للإنسان الطمأنينة، ويشعل الدافع والحب، ويعيد إحياء قدرته الديناميكية ليصبح جبلًا راسخًا من الإيمان. وفي هذا السياق، فإن تلاوة واستماع القرآن الكريم هما الرابط الحيوي لهذا الاتصال، كضوء يسقط فقط على حدائق الإستعداد ويتجاوز صحاري الغفلة.

ونظرًا لأن وجود الإنسان مرتبط بطبيعته بالمبدأ المطلق، حتى عندما يكون ملوثًا بطبقات من الكفر والشرك، فإن استماع وتلاوة الكلام الإلهي سيكون له تأثير محتمل، وإن كان محدودًا، عليه. يمكن ملاحظة هذه الظاهرة في شوق بعض زعماء قريش لاستماع القرآن الكريم.

كما سجلت المصادر التاريخية أن "شخصيات مثل أبي جهل وأبي سفيان والأخنس بن شريق - الذين كانوا من أشد المعاندين في الكفر - استمعوا سرًا وعلى مدى ثلاث ليال متتالية، بعيدًا عن نظر بعضهم البعض، إلى همسات صلاة الليل للنبي (ص) في حرم منزله" (سيرة ابن هشام، ١٤٠٥ هـ: ج١، ص١٩٣).

هذه الحقيقة التاريخية شهادة على التأثير القهري والفطري لكلام الله تعالى على الطبيعة البشرية؛ لأن هذا الإستماع هو نقطة إتصال بـ"ذلك البحر" (مقام الوحدة)، ومفتاح لطمأنينة الوجود التابع للإنسان، ومظهر من مظاهر صوت الخالق. ومع ذلك، فإن هذا النور الهادي لم يحقق لهم ثمرة ملموسة؛ لأنهم ظلوا غارقين في عناد كفرهم وحالوا دون تحقق النعمة الإلهية الكاملة.

"نُقل عن جير بن مطعم أنه قال: جئت إلى المدينة لدفع فدية أسرى بدر، وبعد صلاة العصر للمسلمين في المسجد، إستلقيت ونمت حتى أقيمت صلاة المغرب، وعندما سمعت صوت قراءة محمد (صلى الله عليه وآله) وهو يقرأ سورة 'والطور'، قمت مرتعبًا وأصغيت إلى قراءته حتى خرجت من المسجد، وعندها استقرت أول بذرة إيمان في قلبي" (الواقدي، ١٣٦٩ هـ: ج٢، ص٩٥).

في النهاية، يجب القول إن حق تلاوة القرآن الكريم هو تأثيرها في تعزيز الميل الفطري للإنسان نحو نور الإيمان الإلهي.
هذه المساعدة والتعميق الروحي لا يتحقق إلا بتحقق عدة عناصر: "تلاوة الآيات بوضوء وتمهل، والإهتمام بالفهم الدقيق للمعاني، والإلتزام العملي بالأحكام والأوامر، والتأمل في البشارات والإنذارات، واتخاذ القصص قدوة، وقبول العبر من الأمثال القرآنية. فمجرد حفظ الآيات المتتالية، أو تكرار الحروف والكلمات، أو مجرد دراسة الهوامش والتفسيرات، لا يعادل حق التلاوة. بل حق التلاوة يشير إلى التدبر والتأمل في حدود ومعاني الآيات" (محمدي الري شهري، ج٩، ص٣٥٠-٣٥١).
كما توضح سورة ص، الآية ٢٩: "كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ". وللوصول إلى هذه المرتبة من التلاوة، فإن أفضل طريقة هي الإقتداء بالسيرة النبوية، أي اللجوء إلى الله تعالى من قطاع الطرق الداخليين والخارجين، والإستعانة بهذا المرشد الشامل داخليًا وخارجيًا كما كانت طريقة النبي العملية. ومن يتبع هذا المنهج، فإنه سيشمل بالوعد الإلهي وثمار هذا الحديث الشريف" (جوادي آملي، ١٣٧٧ هـ: ج٩، ص٣٠٦).
إن إتباع هذا المنهج القرآني يضع سلوك الفرد على طريق الكمال ويشمله كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) عندما قال: "ما جالس أحد القرآن إلا قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في الهدى، ونقصان من العمى والضلال" (نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦). في ضوء هذا التحول الداخلي، يتحقق الوعد الإلهي بشكل ملموس، حيث يؤكد القرآن الكريم في سورة الأنفال، الآية ٢: "وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا زَادَتْهُمْ إِيمَانًا"، أي عندما تتلى آيات ربنا النورانية على أرواحهم، يزداد إيمانهم.

الأسس القرآنية للتوكل على الله في تحكيم الايمان

"التوكل بمعنى قبول الوكالة والاعتماد على غير والتمني واظهار العجز. التوكل على الله يعني تفويض الامر الى الله والاطمئنان الى تدبيره" (القريشي، ١٣٨٧: ج٧، ص٢٤٠).
الله تعالى في القرآن الكريم في ضمن الاية الشريفة "وعلى الله فليتوكل المؤمنون آل عمران /٦٠" اوصى المؤمنين بالتوكل. "الاية تدل على الحصر اي يجب ان يتوكلوا على الله وحده" (فخر الرازي، ١٣٦٠: ج٩، ص٤١١).
"بناء على الاية المذكورة، قانون العالم، هو دعوة الى التوكل على الله. هذا التوكل يتحقق في فضاء الايمان والمؤمنون من خلاله يثقون بالله ويقوون. لان لا مصدر للقوة غيره ولا محل للثقة سواه" (فضل الله، ١٤١٩هـ: ج٦، ص٣٥٠).
"عمل المؤمنين في ايمانهم مؤثر الطاعة والعبادة واداء الواجبات وترك المحرمات تزيد الايمان والاثم والمعصية تنقصه. عندما يتوكل العبد على الله ويفوض اموره اليه وخوفه ورجاؤه من الله وحده، فهذا التوكل يزيد ايمانه" (البيضاوي، ١٤١٨هـ: ج٣، ص٤٩).
"امام الكاظم عليه السلام شبه الدنيا ببحر غرق فيه كثير من الناس الا من توسل بسفينة التقوى سفينة ملاحها الايمان واشرعتها التوكل" (الكليني، ١٤٠٥: ج١، ص١٦).

وبالنظر الى رواية الامام الكاظم عليه السلام في مفاهيم القرآنية، نسبة التوكل الى الايمان يمكن توضيحها باستخدام تمثيلات الملاحة؛ حيث الاشرعة لها وظيفة اكثر من مجرد اداة ميكانيكية وهي بمثابة مسخرات هادية للاستفادة من القوة المحركة وتثبيت اتجاه السفينة مقابل اضطراب البحر وتمكن الوصول الى الشاطئ المقصود. في هذا السياق، التوكل بصفته مقاما عرفانيا عمليا في بنية الايمان، يلعب دورا مطهرا ومقويا. بالتحديد، التوكل ليس مجرد حالة سلبية، بل هو عنصر فعال ومحرك في عملية التكامل الايماني الذي يرفع الايمان من مرحلة التصديق النظري (الايمان بالقوة) الى مقام اليقين المتحقق (الايمان بالفعل) ويقود الانسان الى درجات الكمال المقصودة في الشريعة.

وبهذا فان الايمان الاولي بعد عبوره مراحل التكامل، يكتسب متانة ويبلغ بالانسان ذروة النمو. نموذج هذا التحول يمكن رؤيته في الطفل الصغير الذي مع ثقته الكاملة بوالديه تزداد محبته لهما. وهذه صورة لعلاقة الانسان المؤمن بربه عندما يبلغ درجة من التوكل "يعلم فيها ان المخلوق لا يضر ولا ينفع ولا يمكنه من دون اذن الله ان يمنع او يعطي شيئا ويقصر امله عن الخلق؛ فاذا بلغ هذه الحالة لا يعمل الا لله وخوفه ورجاؤه لله وحده ولا تطمع عينه في احد سواه" (المجلسي، ١٣٨٨: ج٧٧، ص٢٠).

في هذه الحالة، الانسان المتوكل يرى الله حال مشاكله والخير الحقيقي له ويوقن ان كل ما قدر له انما هو مبني على الحكمة والمصلحة الالهية. مثل هذا الاعتقاد يخلق قوة داخلية تدفع الانسان الى القبول الراضي بارادة الله وتثبته في طريق المحبة والعبودية. التوكل، اضافة الى تقوية الايمان، يؤدي الى تعميق المحبة الالهية وحصول الطمأنينة النفسية؛ لان الثقة بالله جوهرة سامية تنقل الانسان من قلق المخلوق الى اطمئنان الربانية وترفعه الى ذروة المعرفة الوجودية.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحدد اصل القوة الحقيقية للانسان في التوكل فيقول: "من اراد ان يكون اقوى الناس فليتوكل على الله" (المتقي الهندي، ١٤١٩هـ: ص٥٦٨٦). هذا القول يبين قاعدة معرفية: التوكل الية لتقوية الايمان. لان المؤمن عندما يسند اموره الى الله القادر المطلق، فانه في الحقيقة يحقق يقينه بالتوحيد الفعلي. هذا الفعل العملي يثبت انه لم يقبل خالقية وربوبية الله باللسان فقط، بل قبلها في مقام العمل ايضا. هذه المطابقة بين الاعتقاد (الايمان) والفعل (التوكل) تؤدي الى تمتين وتعريف جذور الايمان في قلب الفرد وتمكنه في مواجهة تقلبات الوجود من الاستفادة من القوة الالهية اللامتناهية.

في تعاليم الاسلام والسيرة النبوية تجلت قوة الانسان في التوكل. كمثال "في حادثة الهجرة، عندما خرج النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ليلا من مكة لحفظ الاسلام، قال بهدوء تام لصاحبه: "لا تحزن ان الله معنا" التوبة/٤٠. هذا الهدوء في ذروة الخطر كان مصداقا كاملا للتوكل والثقة المطلقة بالله وتحقيقا للوعد القرآني "ومن يتوكل على الله فهو حسبه" الطلاق/٣ (اي الله كافيه)" (اليعقوبي، ١٣٤١: ج٢، ص٤٠).

النقطة الاساسية هنا هي أن التوكل في نظر الإسلام ليس سلبا أعمى من المسؤولية، بل هو حقن الإيمان في ضوء أداء الواجب. في رواية مشهورة "أن رجلا جاء إلى النبي (ص) وأراد أن يترك ناقته، وقال: أأعقلها وأتوكل؟ أو أطلقها وأتوكل؟! فقال صلى الله عليه: أعقلها (شد ركبة ناقتك مع ذراعها بحبل)، وتوكل)" (محمدي ري شهري، ١٣٨٩: ج١٣، ص٤٦٣). هذا التأكيد يبين ان التوكل الحقيقي هو الإعتماد على القوة الإلهية اللامتناهية بعد أداء الواجبات والتدابير المادية كاملة. لذا، فإن التوكل الذي سنده أداء الواجب هو بلا شك عامل لنمو وازدهار الإيمان، لأن الإنسان مع أداء التكليف يحقق يقينه بالتوحيد الفعلي والربوبية الإلهية، وهذه المطابقة بين الإعتقاد والعمل تقوي الايمان.

الأسس القرآنية للصلاة في تحكيم الإيمان

"الصلاة كتكليف ووظيفة، وضعت على عاتق الإنسان منذ بدء خلق آدم عليه السلام. تفسير القمي في توضيح الآية الشريفة 'فتلقى آدم من ربه كلمات' يروي رواية تشير إلى مسألة الصلاة في زمان النبي آدم عليه السلام" (القمي علي بن ابراهيم، ١٤٠٥هـ: ج١، ص٤٤).

ولكن لم تكن هيئة وعدد ركعاتها وشروطها معلومة، وبهذا - في الآية ٤٠ من سورة إبراهيم، والآية ٣١ و ٥٥ من سورة مريم، والاية ٨٧ من سورة يونس، والآية ١٧ من سورة لقمان، والآية ٨٧ من سورة هود والآية ٧٣ من سورة الأنبياء - ذكرت الصلاة للأنبياء وأمر بها كل منهم. أي أن القران الكريم لم يستثن أي نبي أو أمته من هذا التكليف. بعد بلوغ المعرفة الإلهية، ليس هناك عبادة تضاهي مكانة الصلاة. فالصلاة كرمز للعبودية والخضوع للرب، هي أعلى صورة للإتصال بين الإنسان والخالق الواحد الأحد. هذه العبادة تعد ركنا أساسيا للدين وعماد خيمة الإيمان، كما ورد في المصادر الدينية إن أهميتها جعلت الأعمال الدينية الأخرى بدونها تفتقد المتانة والقيمة اللازمة.

إن تعالي الروح وارتقاء الإيمان يتطلبان خطوات كبيرة وجهودا عظيمة. الصلاة هنا تلعب دور السلم الذي يقود السالك إلى ما وراء الحواجز. كل ركعة منها درجة نحو سقف الوعي والإطلاع المرتفع. الصعود على هذا السلم يفتح عيون الروح لترى التناغم المدهش لجزيئات الوجود في التسبيح والطاعة لله: "يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير" التغابن/١.

الصلاة ليست مجرد مجموعة من الحركات والأذكار، بل هي تمرين للإنسجام مع إيقاع الكون والإتصال بمبدأ الوجود. هذا الإنسجام يمنح الإنسان رؤية شمولية وسامية تمكنه من رؤية الظواهر في إطار أوسع من علاقات السبب والمسبب. مع كل سجدة يتحرر الإنسان من تراب الأنانية ويعرج إلى سماوات الروحانية؛ عروج يكون ارتقاء الإيمان إلى مبدأ الأبعاد، أبعد منه.

نبي الله ابراهيم عليه السلام، المعروف بأبي الأنبياء العظام عليهم صلوات الله، يطلب من ربه أن يجعل ذريته من مقيمين الصلاة: "رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ..." (ابراهيم/٤٠).

وبما أن طبيعة الإنسان تريد الأفضل لأبنائه دائما، فمن المؤكد أن هناك تأثيرا وخصائص خاصة في إقامة الصلاة جعلت النبي المحطم للأصنام يدعو هكذا لذريته.
"أجاب رسول الله صلى الله عليه وآله في جواب سؤال أبي ذر عن الصلاة فقال: 'الصلاة خير موضوع، فمن شاء استقل، ومن شاء استكثر '". (ابن بابويه، ١٣٦٢: ج٢، ص٥٢٣).
الإنسان بطبعه يطلب الكمال. يطلب المنفعة، واذا استنار بصيرته العقلية في معترك الدنيا فسيصل إلى أسرار هذا الواجب الإلهي وسيدرك من أعماق روحه ارتقاء الإيمان ونموه.
بعبارة اخرى، الصلاة عبادة مركبة، تحقيقها يتطلب مرتبتين: مرتبة الصحة ومرتبة الكمال. صحة الصلاة، وهي الشرط الأساسي والمقدم على قبولها، تتطلب مراعاة دقيقة لكل الأركان والشروط والآداب الظاهرية. ومرتبة الكمال تتحقق بعد إحراز الصحة بالإلتزام بالجوانب النوعية وحضور القلب.
إن "الأساس المشهور عند علماء الأصول هو أن الألفاظ الشرعية - خاصة في مجال العبادات - وضعت للأفراد والمصاديق الصحيحة والنافذة، لا للأعم (الصحيح والفاسد). فمثلا إطلاق البيع في لسان الشارع المقدس يشمل العقود التي يترتب عليها الأثر الشرعي المقصود (كانتقال الملك وإمكان التصرف)، أما البيع الفاسد أو الباطل الذي يخلو من هذا الأثر فهو ليس مصداقا حقيقيا للبيع. وهذه القاعدة تسري على الصلاة أيضا. مراد الشارع المقدس من كلمة 'صلاة' هو الصلاة التي تحققت شروطها، أي الصلاة الصحيحة هي المقصودة، وإطلاق 'صلاة' على الصلاة الباطلة سيكون من باب التسامح أو المجاز" (مظفر، ١٤٠٨: ج١، ص٣٧).
لذا فإن الشرط الأساسي لتحقيق التأثير والأثر الشرعي للصلاة هو صحتها الذاتية، أي ضرورة إحراز جميع الأركان والشروط التي قررها الفقهاء المشهورون في الكتب الفقهية والرسائل العملية لصحة الصلاة. ومن الواضح أنه لو لم تتحقق شروط الصحة، فالصلاة باطلة ولا ترفع التكليف، وبالأولى لن تكون كمالية ولا مقوية للإيمان.
أعمال الإنسان لها مراتب دنيا وعليا، والعبادات ليست مستثناة من هذه القاعدة. فكما أن مقدار الإنفاق المالي يمكن أن يكون قليلا أو كثيرا، فكذلك الإنسان يمكنه أن يصلي الصلاة بمقدار أداء التكليف وتبرئة الذمة فقط، أو أن يقيمها في مرتبة عليا وكاملة. "مثل الصلاة التي نقلت عن أمير المؤمنين علي عليه السلام والتي كانت في نهاية الحضور والخشوع والإخلاص" (الديلمي، إرشاد القلوب، ج٢، ص٢٥-٢٦؛ فيض الكاشاني، ١٤٠٣هـ: ج١، ص٣٩٨).
مع أن الصلاة تتحقق في مرتبة الصحة بأداء الأركان والأجزاء الواجبة، إلا أن كمالها يتوقف على اهتمام المكلف بالآداب والمستحبات كالإهتمام بالأذان والإقامة والإلتزام باللباس الظاهري والتطيب، والأهم تعميق حضور القلب وإخلاص النية في كل الأعمال والأذكار. وبلوغ هذه المرتبة العليا سيؤدي إلى كمال الإيمان الذي هو موهبة الهية.
"صاحب تفسير المنار يرى إقامة الصلاة هي التوجه إلى الله وقراءتها بخشوع، ويقول أن أي صلاة بلا توجه فهي صورة الصلاة فقط" (رشيد رضا، ١٩٩٠م: ج١، ص١٢٦).

و "في تفسير مجمع البيان ذكر إقامة الصلاة هي أداؤها بحدودها وفرائضها، أي أن يؤدوها بكمالها وأحسنها" (الطبرسي، ١٣٦٧: ج١، ص١٢١).
"إن ما يوصلنا لحقيقة وروح الصلاة هو الإخلاص ونية القرب وخلوها من الرياء. أي أن يكون للعبد حضور قلب، فلا يشرد فكره ويلتفت عن صلاته ويعلم ماذا يفعل وماذا يقول، وأن يفهم معاني الصلاة ليرقى المعراج الروحي. فبالإضافة إلى خشوع القلب يجب أن يحافظ على خشوع الأعضاء والجوارح، وأن يربي داخل نفسه إحساس التعظيم والتبجيل لذلك المقام الأحد الواحد القهار، بحيث يخاف ويضطرب في قلبه من هيبة وعظمة الرب، وفي نفس الوقت يكون راجيا لثوابه." (النراقي، ١٣٧١: ص١٣٠٦).
كلما قربت الصلاة من هذه الشروط كانت مصداقا لإقامة الصلاة وساعدت على تنمية الإيمان.
ومن يقيم الصلاة يهيء نفسه ليكون مصداقا للآية الكريمة: "أقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر" (العنكبوت/٤٥).
النبي الكريم صلى الله عليه وآله يقول: "أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ ، قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس؛ يمحو الله بهن الخطايا" (المجلسي، ١٣٨٨: ج٧٧، ص٤١٩).
"شاب من الانصار كان يصلي مع رسول الله صلى الله عليه وآله ويقع في الفحشاء. بلغ الخبر رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: صلاته ستدفعه عن الفحشاء يوما ما" (المجلسي، ١٣٨٨: ج٨٢، ص٣١٩).
الرواية النبوية وقصة ذلك الشاب كشاهد مجرب، تقنع القارئ بقوة الصلاة الخارقة في تسهيل ترك المعصية ورفع مستوى الإيمان، لأن إقامة الصلاة هي حبل الإتصال بين الخالق والمخلوق.
"الصلاة، باعتبارها أبرز مصداق لذكر الله، كلما كانت أكمل كان الإمتناع عن المعصية أكثر. ولما كان ارتباط الإنسان بالله أقوى وأمتن، سبب إزدياد الألفة والرسوخ في القلب، فإن ما يسبب الغفلة والشك والقلق يقتلع من القلب، وينتج عنه تقوية الإيمان الديني". (الطباطبائي، ١٣٨٠: ج١٩، ص٤٦٢).
"المسلم التارك للصلاة بسبب تركه للصلاة، يفطر في رمضان أيضا ويترك الحج والزكاة وباقي الواجبات. فهو في الحقيقة يقطع حبل اتصاله بترك الصلاة. أما من يصلي الصلاة حتى لو لرفع التكليف، فإنه مقارنة بغير المصلي، يحترز من كثير من المنكرات. وبنفس المنطق، كلما كان حبل الإتصال أمتن، زاد الشوق والرغبة للمعبود وقوى الحركة نحوه، وذلك هو تقوية الإيمان" (الطباطبائي، ١٣٨٠: ج١٦، ص٢٠٣).

الصدقة الخالصة أصعب اختبار للإيمان

قال رسول الله صلى الله عليه: (مَثَلُ المؤمنين في تَوادِّهم وتَراحُمِهِم وتعاطُفِهِم، مَثَلُ الجَسَدِ، إذا اشْتَكى مِنْهُ عُضْوٌ تَداعَى له سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى) (أحمد بن حنبل، ١٤١٦هـ: ج٦، ص٣٧٩).

فطرة الإنسان ممزوجة بحس العطف والتعاطف مع بني جنسه. وقد أكدت تعاليم القرآن الكريم ودين الإسلام، المبني على فِطرة الإنسانية، هذه السمة كأحد أركان الأخلاق الحسنة، وشجعت عليها، وحددت تعليمات واضحة حول كيفية تحقيقها في إطار مفاهيم مختلفة منها الصدقة.

في مسألة الصدقة، يبرز من التعاليم الدينية التأكيد على الصدقة الحسنة والخالصة؛ لأن حب الخير والمساعدة للآخرين أمر فطري وجوهري في الإنسان. ومع ذلك، فإن الإنسان بالإضافة إلى هذا الميل المعنوي، لديه نزعة غريزية نحو الدنيا وجمع المال والمنصب، وهي نزعة قد تعوقه عن المسار الإنساني والإلهي الصحيح إذا فقد الرقابة الأخلاقية. وقد ورد في المصادر الروائية أن التعلق المفرط بالدنيا هو أصل كل خطيئة، كما في الحديث النبوي: (حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ) (الكُلَيْنِي، ١٤٠٥هـ: ج١، ص٣١٥). فحب المال والجاه يمكن أن يُوقِع الإنسان في معارضة الإرادة الإلهية وأولياء الله سبحانه وتعالى. ويُظهر التأريخ أن العديد من الأحداث الأليمة والإنحرافات الكبرى، بما فيها واقعة عاشوراء، كانت نتيجة لهذا الحرص على الدنيا والمصالح المادية.

يُعد التعلق الشديد بالدنيا والمال أحد أبرز معوقات النمو والإرتقاء الروحي للإنسان.

في هذا السياق، تلعب الصدقة دوراً مهماً في تطهير الروح وتقوية الإيمان. وهذه العبادة تكون ذات قيمة فقط عندما تُقدم عن وعي ورضى قلبي، أي عندما يقر العقل صحتها ويطمئن القلب لها. وعندما يقدم الإنسان الصدقة بدافع إيماني وإنساني، فإن ذلك يعزز النمو الديناميكي والروحي في نفسه. ويمكن تشبيه هذه العملية بتأثير الري على النبات؛ فكما أن الماء يُنبت النبات ويُخضره، فكذلك الصدقة الخالصة تحيي روح الإنسان وتثبت إيمانه.

(خالق الشيء هو الأعلم به والله تعالى يعلم بدقة مكونات الإنسان وروابطه الوجودية، ويعلم أن الإنسان لديه ميل غريزي لجمع المال والإعتداد به. وهذا التعلق بالمال يبلغ درجة أن فقدان جزء منه يُعد كفقدان جزء من روحه. لذلك، فإن مجاهدة النفس في الصدقة أصعب بكثير من غيرها من العبادات والأعمال). (الطباطبائي، ١٣٨٠هـ: ج٣، ص٥٣٣).

وبناءً على ذلك، نزلت قرابة ثمانين آية في القرآن الكريم حول الصدقة. عندما يأمر الله تعالى بالإنفاق والصدقة ويقول: (أنفقوا مما تحبون)، فإن الهدف هو تحقيق النمو.

(فلسفة الصدقة هي بناء الإنسان والتعاطف، أي اتحاد المؤمنين وتحول الأنا إلى نحن، وهو غاية النمو والكمال. وما يوحد جميع المؤمنين هو روح واحدة، هي روح الإيمان، التي تكتمل بالصدقة والتضحية بالنفس). (مطهري، ١٤٠٢هـ: ص٢٨٦).

(التعالي الروحي يتحقق في ظل العفو والتجاوز الهادف (الإنفاق). إن مبدأ القناعة الذي أكدت عليه الثقافة الإسلامية، موجّه في المقام الأول لأصحاب القدرات الوجودية والإقتصادية المحدودة. أما من لديه القدرة على كسب المال، فعليه أن يعمل ويكتسب، ويحقق كماله الوجودي من خلال التزكية والصدقة. ففقدان المال والإمتناع عن العطاء ليسا بذاتهما دليل كمال، بل كسب الثروة ثم تجريد القلب منها وعدم التعلق بها هو العامل الرئيسي في البناء والتعالي).

يقول الله تعالى في محكم كتابه الكريم لرسوله (ص): (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) (التوبة: ١٠٣). والمراد من هذه الآية بيان فلسفة بناء الصدقة بدقة. يأمر الله تعالى رسوله(ص) بأخذ الصدقة من أموال المؤمنين ليكون ذلك سبيلاً لنموهم وتعاليهم. وهذه العملية تشبه تماماً النبات الذي ينمو ويزهر أكثر بعد التقليم) (مطهري، ١٣٨٠هـ: ج٢، ص٦٧).

هذا النمو هو التعالي الروحي وزيادة عمق الإيمان، الذي يؤدي إلى زوال الشعور بالحاجة الشخصية ويجذب الفرد نحو احتياجات الآخرين؛ كما جاء في كلام الوحي: (لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) (الحشر: ٩).
يصف الله تعالى في القرآن الكريم، عبر آيات متعددة، كيفية الصدقة المؤثرة والبانية للإيمان على النحو التالي:

١- التصدق بالأشياء الجيدة والمفضلة:

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) (آل عمران: ٩٢).
للصدقة من الممتلكات القيمة تأثيران أساسيان: أولاً، التضحية بالمال في سبيل المعتقد يؤدي إلى تعالي روح الإيثار عند الإنسان والتحرر من التعلق بالدنيا والثقة غير المبررة بها؛ وهو تأثير لا يتحقق بالصدقة بأشياء قليلة القيمة أو تالفة. ثانياً، تلبية الإحتياجات وتقليل الفجوة المادية والمعنوية بين شرائح المجتمع لا تتحقق إلا بالصدقة بأموال قيمة، أما الصدقة بأشياء غير نافعة فلا تحقق هذا الهدف بل قد تزيد من شعور المهانة لدى المحتاجين الذين يُجبرون على قبول بقايا موائد الآخرين). (مطهري، ١٣٧٨هـ: ج١، ص٤٢).
عندما يقدم الإنسان الصدقة مما يحب، فهو في الحقيقة يتنازل عن هذا المحبوب للحصول على محبوب أسمى. ونتيجة لذلك، لا يقدم الإنسان على الصدقة إلا إذا تحقق من السعادة الأخروية. والتسليم بهذه السعادة الأخروية يستلزم الإقرار بوجود خالق عليم قدير، والقبول بالإلتزام العملي بأوامره ونواهيه. وهذه العملية تمثل أعلى مراتب الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة) (فخر الرازي، ١٣٦٠هـ: ج٨، ص٢٨٨)، وهو ما يُعبّر عنه الله تعالى في الآية ١٦٧ من سورة البقرة بـ (الْبِرِّ).

٢- الإنفاق بعيداً عن الإيذاء والمنّ والرياء (بإخلاص)

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ» البقرة/٢٦٤.
"يجب أن يكون للإنفاق جذور في إيمان عميق وضمير يقظ وحساس. كلما أشار القرآن الكريم إلى الإنفاق قرنه بقيد «في سبيل الله»؛ وهذا يعني أن هذا العمل يجب أن يُقام حصرياً لرضا الله تعالى. بالإضافة إلى ذلك، ينبغي في عملية المساعدة الحفاظ على كرامة وشخصية المتلقي وتجنب أي مساس بمكانته." (مطهري، ١٣٨٢: ج١، ص٢٠٧).
"روي عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: مَنْ أَحْسَنَ إِلَى مُؤْمِنٍ ثُمَّ آذَاهُ بِكَلِمَةٍ أَوْ مَنَّ عَلَيْهِ أَبْطَلَ اللَّهُ صَدَقَتَهُ." (قمي علي بن إبراهيم، ١٤٠٥هـ: ج١، ص٩١).
فالعمل الذي لا يكون بقصد رضا الله، أو الصدقة التي تصاحبها منّة أو أذى، تفتقر إلى الإستحقاق من حيث الثواب الإلهي. وبالتأكيد، هذا النوع من العطاء لا يمكن أن يحمل تأثيراً أو يتجلى فيه الإيمان الحقيقي." (طوسي، ١٣٧٦: ج٢، ص٣٣٥).

٣- استمرارية الإنفاق

«وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ» الذاريات/١٩. وأيضاً: «وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ» المعارج/٢٤-٢٥.
"إذا بلغ الإنسان مرحلة يداوم فيها على المستحبات بالإضافة إلى الواجبات، فهذا دليل على أن هذا العمل صادر عن اختيار ومن أعماق روحه، وتأثيره في سمو الروح وزيادة الإيمان لا يمكن إنكاره. عندما يُسأل الأئمة عليهم السلام عن الحق المعلوم في الآية السابقة، يجيبون أنه حق فوق الزكاة الواجبة؛ هو حق قد وضعوه بأنفسهم وهو زائد على الواجبات." (مطهري، ١٣٨٠: ج٩، ص١٠٩-١١١).

"قال الإمام الصادق عليه السلام: مَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ وَلَا أَعَزَّ مِنْ أَنْ أُحْسِنَ إِلَى رَجُلٍ ثُمَّ أُحْسِنَ إِلَيْهِ إِحْسَاناً آخَرَ يُتِمُّ بِهِ الْأَوَّلَ، فَإِنِّي رَأَيْتُ قَطْعَ الْإِحْسَانِ بَعْدَهُ يُبْطِلُ ثَوَابَ الْإِحْسَانِ الَّذِي قَبْلَهُ." (طبرسي، ١٣٩٠: ج٣، ص١٤٦).

٤- حد الاعتدال في الإنفاق

«وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا» الإسراء/٢٩.
"سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن هذه الآية، ففي قوله (لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ) أمسك بيده وقال: هكذا، وفي قوله (وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) بسط كفه وقال: هكذا." (عياشي، ١٣٨٠: ج٢، ص٢٨٩).
رأي الإمام في هذا المجال يقوم على ضرورة مراعاة الإعتدال في الإنفاق. وهذا يعني أن الفاعل يجب أن يتجنب الإفراط في العطاء الذي يؤدي إلى فقدان المال الشخصي بالكامل والعجز عن الإستمرار في الدعم. من ناحية أخرى، هذا الرأي لا يعني أبداً البخل الكامل والإمتناع عن أي إحسان. وبناءً عليه، فإن المقصود هو حد وسط ديناميكي تتوافق فيه قدرة الفرد على المساعدة المستمرة مع الحفاظ على المال الضروري له.
"يجب على المسلم الإلتزام بالإعتدال؛ لأن الإسراف والتبذير ضاران بالفرد والمجتمع ويؤديان إلى اختلال التوازن في مختلف مجالات حياة الإنسان. الإسلام يرى الوسطية من خصائص الإيمان." (سيد قطب، ١٤٠٣: ج٥، ص٢٥٧٨).
كان النبي صلى الله عليه وآله أسخى الناس وأكثرهم عطاءً. لقد أصبحت صفة الإنفاق والعطاء ملكة راسخة ثابتة فيه، لا حالة عابرة زائلة.
"لا يأتيه سائل أو محتاج إلا أعطاه شيئاً، ولا يبخل حتى بثوبه الذي عليه. وعندما أعطى ثوبه للسائل وتأخر عن المسجد نزلت الآية الكريمة" (طبرسي، ١٣٩٠: ج١٤، ص١٢٧): "فلا تمسك يدك كل المسك فتبخل ولا تبسطها كل البسط فتندم." (الإسراء/٢٩).
بعد غزوة حنين، أثناء تقسيم الغنائم، أظهر رسول الله صلى الله عليه وآله من العطاء والإنفاق ما جعل أشد الأعداء عناداً يستسلمون له ويعترفون بفضائله. حيث أعطى النبي صلى الله عليه وآله لأبي سفيان أربعين أوقية فضة مع مئة بعير، وبحسب طلبه أعطى المقدار نفسه لأبنائه. فقال أبو سفيان: فداك أبي وأمي، ما أكرمك! جزاك الله خيراً." (واقدي، ١٣٦٢: ج٢، ص٩٤٤).
كما أعطى النبي صلى الله عليه وآله لصفوان بن أمية الجمحي وادياً مملوءاً من الإبل والغنم من غنائمه وأمواله. فقال صفوان في هذا العطاء: أشهد أن أحداً لم يكن يعرف مثل هذا العطاء إلا النبي(ص)، وأشهد أنك رسول الله." (واقدي، ١٣٦٢: ج٢، ص٩٤٦).
وبالنظر إلى الرواية التي تقول: «أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ أَحْمَزُهَا» (أي أصعبها) (فيض الإسلام، ١٣٦٨: ج٦، ص١١٩٦). وبالنظر إلى ما ذكر حول الإنفاق، فإن تأثير الإنفاق على الإيمان أكبر من غيره، بالإضافة إلى نمو الإيمان، فهو يحتوي على تحول عظيم في تزكية وسمو روح الإنسان.

الإستنتاج

للإيمان والعمل الصالح ترابط متبادل. كلما تحرك الإنسان وفق التوجيهات الإلهية وجعل التعاليم الدينية أساساً لحياته، شمله لطف وفضل الله المضاعف وزاد إيمانه. هذه الزيادة في الإيمان بدورها تسرع الرغبة والحماس للقيام بالأعمال الصالحة والسير في طريق العبودية. في الحقيقة، الإيمان الحقيقي محرك للأعمال الصالحة، والقيام بهذه الأعمال باستمرار ووعي يؤدي أيضاً إلى نمو وديناميكية الإيمان. هذه الدائرة التكاملية هي أساس حركة الإنسان نحو القرب الإلهي. لذلك، في التربية الدينية والدراسات القرآنية، من الضروري

التأكيد أكثر على الدور المعزز للأعمال العبادية في نمو الإيمان، حتى ترتقي العبادة من مستوى العمل الظاهري إلى تجربة داخلية عميقة ومحوّلة.
ومع ذلك، يجب الإنتباه إلى أن الأعمال الصالحة تكون مؤثرة وتثمر إيمانا فقط عندما تُقام مع «حضور القلب» واهتمام واعٍ. وهكذا، فإن الذكر الذي يكون مع تركيز ودافع خالص، والتلاوة التي تكون مع تدبر وفكر في مفاهيم القرآن الكريم، والتوكل الذي يكون مع عمل وأداء للتكليف، والصلاة التي تُقام بوعي وسلامة الفكر، والإنفاق الذي يكون باخلاص واستمرارية، كل ذلك سيضع المؤمن في طريق السمو والسعادة.
النقطة الجديرة بالتفكير هي أن المؤمنين في أداء الأعمال الصالحة لا ينبغي أن يتخذوا نهجاً انتقائياً يعتمد على الأهواء. كما يجب الإعتراف بأن التوجيهات والتكاليف الدينية، وكذلك نطاق الأعمال الصالحة، أبعد بكثير من المصادر المحدودة التي تمت مناقشتها في هذا البحث. وفي هذا الصدد، يجب دائماً إتباع والإقتداء بسيرة ونهج النبي الأكرم صلى الله عليه وآله التربوي في تعميق إيمان المؤمنين، كأفضل نموذج استراتيجي ودعم متين.

المصادر

١. خليل بن احمد، فراهيدى، العين، دار نشر شهر، ١٣٨٥، ج٨، ص٣٨٨.
٢. طباطبايى، محمدحسين، ترجمه تفسيرالميزان، محمدباقرموسوى، مكتب النشر الإسلامى، قم، ١٣٨٠،ج١٥، ص٤و٥.

٣ .ـ ، ـ ، ترجمه تفسيرالميزان،محمدباقرموسوى، مكتب النشر الإسلامي، قم، ١٣٨٠،ج١٥، ص٤و٥.
٤ . مطهرى، مرتضى،الإنسان الكامل، النشر الإسلامى، طهران، ١٤٠٢،ص١٢٨.
٥ . طباطبايى، محمدحسين، ترجمه تفسيرالميزان، محمدباقرموسوى، مكتب النشر الإسلامي، قم، ١٣٨٠،ج٩، ص٢٧٦.
٦ . محمدى رى شهرى، محمد، ميزان الحكمة، دارالحديث، قم، ١٣٨٩، ج١، ص٤١٢.
٧ .كلينى، محمدبن يعقوب، كافى، دارالكتب الاسلاميه،طهران، ١٤٠٧،ج٢، ص١٢٥.
٨ . مطهرى،مرتضى، مذكرات الشهيد مطهرى، صدرا، طهران، ١٣٩٠،ج١٤، ص١٦٥.
٩ . طباطبايى، محمدحسين، ترجمه تفسيرالميزان، محمدباقرموسوى، مكتب النشر الإسلامي، قم، ١٣٨٠،ج٢٠، ص٥٩.
١٠ . مطهرى،مرتضى، مذكرات الشهيد مطهرى، دار نشر صدرا، طهران، ١٣٩٠،ج١٠، ص٣٠.
١١ . مجلسى، محمدباقر، بحارالانوار، دارالاحياء التراث العربى، بيروت، ١٤٠٣هـ.ج٩٣، ص١٥٧.
١٢. مصباح يزدى، محمدتقى، الحكم الإلهية، موسسة الإمام الخمينى، قم، ١٣٩٤، ص١٧٦.
١٣ .كلينى، محمدبن يعقوب، كافى، دارالكتب الاسلاميه،طهران، ١٤٠٧،ج٢، ص٤٩٨.
١٤ . مجلسى، محمدباقر، بحارالأنوار، دارالاحياء التراث العربى، بيروت، ١٤٠٣هـ.ج٩٣، ص١٦٢.
١٥ . ابن فهدحلى، احمدبن محمد، عدة الداعى و نجاح الساعى، دارالكتب الاسلاميه، طهران ، ١٤٠٧ هـ. ص٢٣٨.
١٦ . طباطبايى، محمدحسين، ترجمه تفسيرالميزان، محمدباقرموسوى، مكتب النشر الإسلامى، قم، ١٣٨٠،ج٢، ص٩٦.
١٧ .ـ ، ـ ، ترجمه تفسيرالميزان، محمدباقرموسوى، مكتب النشر الاسلامى، قم، ١٣٨٠،ج٨، ص٤٩٩.
١٨ . طوسى، محمدبن حسن، التبيان فى تفسير القرآن، دار التراث العربى، بيروت، ١٤٠٤هـ،ج١،ص١١١.
١٩ . مكارم شيرازى، ناصر، تفسير نمونه دارالكتب الاسلاميه، تهران، ١٣٧١، ج١،ص٥٥٣.
٢٠ . فضل الله، محمدحسين، من وحى القرآن،دارالملک، بيروت، ١٤١٩، ج٢، ص١٩٧.
٢١ . ابن هشام، ابومحمد عبدالملک، السيره النبويه، المكتبة الإسلاميه، طهران، ١٤٠٥، ج١، ص١٩٣.
٢٢ . واقدى، محمدبن عمر، المغازى واقدى، مركز النشر الجامعي، طهران، ١٣٦٩، ج٢، ص٩٥.
٢٣ . محمدى رى شهرى، محمد، ميزان الحكمة، دارالحديث، قم، ١٣٨٩، ج٩، ص٣٥٠ به نقل از تنبيه الخواطر، ج٢، ص٢٣٦.
٢٤ . جوادى آملى، عبدالله، تفسير القرآن الكريم الموضوعى، نشر الاسراء، ١٣٩٨، قم، ج٩، ص٣٠٦.
٢٥ . قريشى، على اكبر، قاموس القرآن، دارالاسلاميه، طهران، ١٣٨٧ش. ج٧، ص٢٤٠.
٢٦ . فخر رازى، محمدبن عمر، تفسيركبير(مفاتيح الغيب)، احياءالتراث العربى، بيروت، ١٤٠٥، ج٩، ص٤١١.

٢٧ . فضل الله، محمدحسين، من وحى القرآن،دارالملک، بيروت، ١٤١٩، ج٦، ص٣٥٠.

٢٨ . بيضاوى، عبدالله بن عمر، انوار التنزيل و اسرار التأويل، احياء التراث العربى، بيروت، ١٤٠٥هـ ، ج٣، ص٤٩.

٢٩ .كلينى، محمدبن يعقوب، كافى، دارالكتب الاسلاميه،طهران، ١٤٠٧،ج١، ص١٦.

٣٠ . مجلسى، محمدباقر، بحارالانوار، دارالاحياء التراث العربى، بيروت، ١٤٠٣هـ.ج٧٧، ص٢٠.

٣١ . متقى هندى، علاء الدين، كنزل العمال فى سنن الاقوال و الافعال، موسسة الرسالة، بيروت،١٤٠٩هـ، ص٥٦٨٦.

٣٢ . ابى يعقوب، احمدبن اسحاق، ترجمه تاريخ يعقوبى،محمدابراهيم آيتى، دارنشر العلمية والثقافية، طهران، ١٣٧٤، ج٢، ص٤٠.

٣٣ . محمدى رى شهرى، محمد، ميزان الحكمة، دارالحديث، قم، ١٣٨٩، ج١٣، ص٤٦٣.

٣٤ . قمى، على بن ابراهيم، تفسير القمى، دارالكتاب، قم، ١٣٦٣،ج١، ص٤٤.

٣٥ . بروجردى، آقا حسين، جامع احاديث شيعه، دار نشر فرهنگ سبز، طهران، ١٣٨٦، ج٤، ص٦.

٣٦ . مظفر، محمدرضا، علم الاصول، مؤسسه اسماعيليان للنشر والطباعة، قم، ١٤٠٨، ج١، ص٣٧.

٣٧ . ديلمى، حسن بن محمد، ارشاد القلوب، ناصر، قم، ١٣٧٦، ج٢، ص٢٥؛ فيض كاشانى، محجة البيضاء، موسسة الاعلمى للطبع والنشر، بيروت، ١٤٠٣هـ، ج١، ص٣٩٨.

٣٨ . محمدرشيد، رضا، تفسير المنار، دارالمعرفه، بيروت،١٩٩٠م، ج١، ص١٢٦.

٣٩ . برسى، فضل بن حسن، ترجمه مجمع البيان، آستان قدس رضوى، مشهد، ج١،ص١٢١.

٤٠ . نراقى، ملا احمد، معراج السعادة، نشر حكمت، اصفهان، ١٣٧١، ص١٣٠٦.

٤١ . مجلسى، محمدباقر، بحارالانوار، دارالاحياء التراث العربى، بيروت، ١٤٠٣هـ.ج٧٧، ص٤١٩.

٤٢ . ـ ، ـ ، بحارالانوار، دارالاحياء التراث العربى، بيروت، ١٤٠٣هـ.ج٨٢، ص٣١٩.

٤٣. طباطبايى، محمدحسين، ترجمه تفسيرالميزان، محمدباقرموسوى، مكتب النشر الاسلامى، قم، ١٣٨٠،ج١٩، ص٤٦٢.

٤٤ . ـ ، ـ ، ترجمه تفسيرالميزان، محمدباقرموسوى، مكتب النشر الاسلامى، قم، ١٣٨٠،ج١٦ ص٢٠٣.

٤٥.احمد حنبل، محمدبن حنبل بغدادى، مسنداحمد حنبل، دارالفكر،بيروت، ١٤٠٥، ج٦، ص٣٧٩.

٤٦ .كلينى، محمدبن يعقوب، كافى، دارالكتب الاسلاميه،طهران، ١٤٠٧،ج١، ص٣١٥.

٤٧ . طباطبايى، محمدحسين، ترجمه تفسيرالميزان، محمدباقرموسوى، مكتب النشر الاسلامى، قم، ١٣٨٠،ج٣، ص٥٣٣.

٤٨ . مطهری، مرتضی،الانسان الکامل، النشر الاسلامی، طهران، ١٤٠٢،ص٢٨٦،

٤٩ . ـ ، ـ ، معرفة القرآن، صدرا، طهران، ١٣٨٠،ج٢، ص٦٧.

٥٠ . ـ ، ـ ، مذکرات الشهید مطهری، صدرا، طهران، ١٣٩٠،ج١، ص٤٢..

٥١ . فخر رازی، محمدبن عمر، تفسیرکبیر(مفاتیح الغیب)، احیاءالتراث العربی، بیروت، ١٤٠٥، ج ٨ ص ٢٨٨.

٥٢ . مطهری، مرتضی،الحکم والمواعظ، نشر صدرا، طهران، ١٣٨٠،ص٢٨٦،

٥٣ . قمی، علی بن ابراهیم، تفسیر القمی، دارالکتاب، قم، ١٣٦٣،ج١، ص٩١.

٥٤ . طوسی، محمدبن حسن، التبیان فی تفسیر القرآن، دار التراث العربی، بیروت، ١٤٠٤هـ،ج٢،ص٣٣٥.

٥٥ . مطهری، مرتضی، معرفة القرآن، نشر صدرا، طهران، ١٣٨٠،ج٩، ص١٠٩،

٥٦ . طبرسی، فضل بن حسن، ترجمه مجمع البیان، العتبة الرضویة المقدسة، مشهد، ج٣، ص١٤٦.

٥٧ . عیاشی، محمدبن مسعود، تفسیر عیاشی، هاشم رسولی، مکتبه العلمیه الاسلامیه، طهران ، ١٣٨٠، ج٢، ص٢٨٩.

٥٨ . قطب، سید، تفسیر فی ظلال قرآن، مصطفی خرمدل، طباعة احسان، طهران، ١٤٠٣، ج٥، ص٢٥٧٨.

٥٩ . طبرسی، فضل بن حسن، ترجمه مجمع البیان، العتبة الرضویة المقدسة مشهد، ج١٤، ص١٢٧.

٦٠ . واقدی، محمدبن عمر، المغازی واقدی، مرکز النشر الجامعي، طهران، ١٣٦٩، ج٢، ص٩٤٤.

٦١ . ـ ، ـ ، المغازی واقدی، مرکز النشر الجامعي، طهران، ١٣٦٩، ج٢، ص٩٤.

٦٢ . فیض الإسلام، علی نقی، شرح نهج البلاغه، منظمة الطبع والنشر، طهران، ١٣٦٨، ج٦، ص١١٩٦،